فروبل
المعلم الذي اوجد حدائق الاطفال

بقلم الدكتور صبور عبد النور

هذا معلم صاحب رسالة ، وحامل مشعل . استهدى في سيره الصاعد بوحي من وجدانه ، وبقبس من قلبه ، وبروية من عقله ، فاذا به ، في تاريخ التربية ، خلال العصور ، يدبج صفحات هي من اروع ما كتبه المعلمون الملهمون ، ويغادر في العالم المتمدن ، بعد احتجابه عن الحياة ، تراثاً خطياً او حياً ينعم اطفالنا بخيراته .

ما كان فروبل في الواقع ، هذا الفتى الهزيل الحالم ، المتصوف العميق الايمان ، خريج « دار معلمين » . وما تلقى على مقاعد المعاهد اصول تعليم ، ونظريات قدماء ومحدثين ، وانما شاء القدر الحاتم الجائم في قرارة مصيره ، ان يطوّف في المانية ساعياً وراء عمل يكسب منه قوته ، متردداً بين الزراعة والصناعة ورعاية الاحراج والهندسة البنائية ، الى ان استيقظ ضميره الهاجع ، فتبين ان القوة الخفية التي تقود الامم وتوجّه الافراد قد صاغته ليكون رائداً جديداً في عالم التربية اللامتناهي .

ولد في الحادي والعشرين من شهر آب سنة ١٧٨٢ في قرية اوبرويزباخ من مقاطعة شوارتزبور – رودولشتات الالمانية . وقد اقبل على الحياة ابنا خامساً في اسرة متواضعة ، ربها قيس متزمت متمسك بحذافير العقيدة ، وربتها امرأة عاطفية ، ما عتمت ان ودعت الحياة قبل ان تملأ نفس وليدها باحاسيس الامومة الرهيفة . وظلت هذه النفس ، على كبر ، صادية ، متحرقة الى عطف ، محاولة في سغب الحرمان ، وحيرة المصير ، تلمس سراب قصي ، متباعد ، متلاش كالقابض على قوس قزح بكلتا يديه .

وكأننا بالظمأ الذي احرق شفتيه قد جعل منه ، من بعد ، منهلاً عذباً متدفقاً يرتوي منه الصغار ، فلا يحسون الحرمان قط ، بل يرعاهم في خطواتهم الاولى حنان حار دونه حنان الام .

تردد فروبل على المدرسة الابتدائية في مسقط رأسه ، ثم في شتاديل . وفي هاتين المؤسستين وقف الغلام وجهاً لوجه امام مشاكل التعليم ، واحس التفاوت بين معلم وآخر ، وميلا الى بعضهم ، وانكماشاً عن اخرين . ولقد رزق في احداهما بمعلمين اثنين : الاول متحذلق ، كز ، موبخ ، قاس ، والثاني رحيم القلب كريمه ، يتصرف بتلاميذه كما يشاء ، و « يضبطهم بنظرة من عينيه » . ويقول في المذكرات التي خطها عن ذلك العهد : « كذا نعيد دروسنا كالببغاء ، نتكلم كثيراً ، ولا نعرف شيئاً حقيقياً » .

ثم انتقل في عام ١٧٩٣ الى جامعة ايانا حيث قضى سنتين ، انصرف اثناءهما الى دراسة الكيمياء والتاريخ الطبيعي ، وشارك في شيء من الفلسفة ، وفي علوم متفرقة . عاد بعدهما الى بلدته حيث اكب على المطالعة بنهم وتفهم ، مدوناً خلاصة المباحث التي يقرأها ، مفكراً ، مستنتجاً . ولم يكن قد استقر على رأي نهائي في ما يتعلق بالمهنة التي يرتضيها لنفسه . الى ان اقبل عام ١٨٠٥ وفروبل في الثالثة والعشرين فتبين في ومضاته الوجدانية ان افضل ما يفعله بذل ريق شبابه وذخيرة جهده في صياغة النفوس الصغيرة ليجعل منها نفوساً كبيرة واعية ، قادرة على التمرس بالحياة . فتسلم عملا في مؤسسة نموذجية انشئت في مدينة فرانكفورت ، كان معلموها يتقيدون باسلوب بستالوزي . فبدأ جهاده التعليمي في صف مؤلف من ثلاثين او اربعين تلميذاً ، لاتزيد اعمارهم على الحادية عشرة ، ولا تنقص عن التاسعة . قال في بعض ما كتب : « احسست بعد تيهي السابق باني عثرت على طريقي ، فغدوت كالسمكة في الماء ، وكالعصفور في الفضاء » . لقد احب صغاره ، وآمن بسمو رسالته ، واعد دروسه بعناية ودقة ، آخذاً من اساليب بستالوزي زبدتها ، محاولا جهده تعديلها ، وتشذيبها بحيث توافق عقلية ابنائه . وإذا بالفتى الغر ، المبتدىء ، يستغرق في عمله الجديد ، فيطعمه اوقاته وخواطره ، ويفتتن به افتتان المتدلهين ، ويتضح له ان رحلته الشائقة الشاقة ، التي يود الافضاء منها الى تحقيق مثله ، لا يتيسر له القيام بها على افضل وجه الا اذا اتخذ للعمل عدته ، واختبر ، واستفتى ، واستعان بمعرفة متقدميه ، ونصائح شيوخه فبدأ عهداً جديداً من الاستطلاع والبحث ، ورحل في المدن الالمانية ، وذهب الى سويسرة وانضم الى جماعة بستالوزي في ايفردون . وهناك في محراب التربية الحديثة القائمة على النشاطين الذهني والبدني والتناغم الفعلي بين الطالب ومعلمه تجسدت احلامه حقائق ثابتة ، وانتهى بانتقاء الخير واهمال السيء . وقبل ان يعود الى ميدان العمل في المانية ليزرع نظرياته ، ويجني ثمارها ، اهابت به النخوة الوطنية ، والايثار القومي الى ان ينخرط في الجيش عام ١٨١٣ ، مع ما كان عليه من ضعف البنية ، اعتقاداً منه ان واجب المربي ، الذي يعلم الاحداث الفضائل الوطنية ، الابتداء بنفسه ليكون قدوة لهم . غير ان الصلح في عام ١٨١٤ قضى بتوقف القتال ، وحال دون دخول فروبل العاصمة الفرنسية . وفي هذه الفترة القصيرة من الزمن ، بين الاستعداد للقتال ، والتمرن على اساليب الحرب ، والانضباط العسكري الصارم ، تعرف المعلم الى فتيان ، بعضهم من الجامعيين ، وآخرون من المعنيين بالشؤون التعليمية ، فتبادل معهم الاحاديث ،

منذ مئة وسنتين توفي فروبل (١٧٨٣ – ١٨٥٢) في المانية بعد ان نشر رسالة انسانية مليئة بالحنان على الطفولة ، وخلق ما نعرفه الان باسم « حدائق الاطفال » . وقد قال عنه المؤرخ الشاعر الفرنسي ميشله : « ان نتاجه ، بعد ما ابدعه بستالوزي ، هو انجيل التربية » . وما عتم هذا الانجيل ، بعيد وفاة المعلم ، ان طوف في البلدان الاوروبية الراقية ، مفتحاً العيون والقلوب معاً ، مكتسباً الانصار والمحبذين ، وبنوع خاص قلوب السيدات وحماستهن . فقد وجد فيه الجميع تحقيقاً لحلم قديم راود البشرية منذ ان تمثلت فكرة التعليم على آجر بابل ، وبردي مصر .

وشاءت غرائب القدر ان يكون بين عظماء المربين الذين احبوا الاطفال وسعوا لاسعادهم ، اثنان لم ينعما بهم في اسرتيهما ، هما روسو وفروبل ، ومع ذلك فقد استأثر حب الصغار بقلبيهما ، ووضعا مباديء واصولا تؤمن لهؤلاء السعادة والحرية والمعرفة .

وتناقشوا في شؤون التربية ، واستقر رأيهم على التعاون في تحقيق اهدافهم المشتركة بعد ان يرتدوا الثياب المدنية. والواقع ان معظم حواري فروبل تعرف اليهم في ابان الحرب ، ومنهم : ميدندورف ولانجال ، فكان الاول له ما كان « هرون لاخيه موسى » .

★

ليس في ثنيات اعوامه الناشطة ، وحصيد اعماله ، مفاجآت مسرحية ، تستأثر بانتباه القارىء . وليس فروبل مغامراً يخلق المأساة والبطولة الصارخة ،وانما هو ، في حياته الرتيبة نوعاً ، ملهم متصوّف ، منجذب نحو قطب سام ، وكلُّ امله ان يبلغه مهما قام في طريقه من عقبات لاعتقاده الراسخ بان فكرته هي حق ، وان الحق ينتصر في النهاية . وتعددت المحاولات ، الفاشلة حيناً ، الناجحة احياناً ، مقتبساً من الاولى عزماً جديداً على المضي قُدُماً ، ومفيداً من الثانية في تسديد رمايته . ومن الثابت ان نزوله كيلهو منذ عام ١٨١٦ يعتبر حدثاً تاريخياً في حياته فهناك انشأ « محرفه التعليمي » الحقيقي ، ومن هناك ايضاً بعث بما سماه «رسالة الى الشعب الألماني »،ونشر سلسلة من المؤلفات ، منها: المبادىء ، وسائل معهد كيلهو وحياته الداخلية (١٨٢١) في التربية الالمانية (١٨٢٢) ، تربية الانسان (١٨٢٦) . واذاع بعض المجلات في التربية والتعليم ،ولا سيما : تربية الاسرة (١٨٢٦) . يضاف الى كل هذا النشاط الكتابي الزاخر ، عمل متواصل في حقل التدريس ،يتمرس به المعلم ، ويعانيه في مختلف مراحله ، وشتى انواعه . وغدا معهد كيلهو مدة من الزمن ، شبيهاً بمعهد ايفردون الذي انشأه بستالوزي ، يحجّ اليه المربون والسياسيون ورجال الاصلاح ليقفوا عن كثب على حقيقته ، ويقتبسوا منه ، فيتبدل رَيْثُ المبطىء نشاطاً ، وأناة المتلكىء حماسة ، ويستقيم أوَد المناهج ، وتتلاءم المتفرقات . وظلّ مثابراً على عمله ، متأرجحاً بين النجاح والفشل الى ان اصدر في احد الايام كتاباً غريبا بما فيه من آراء جريئة ، بعنوان : « عام ١٨٣٦ يتطلب تجديداً في الحياة » . وفي هذا المصنف اتضحت فكرة المعلم النهائية ، وتجسدت الكلمة التي اعتملت سنوات في صدره ، فاذا بها تتركز في « العناية بالصغار »، قبل الانتقال الى الاحداث والفتيان . وفيها قال بتطليق المعاهد الهجينة التي تضم الحلقتين الابتدائية والثانوية ، والعناية بمدارس الصغار الشعبية. ففي يقينه ان الانسانية تحتاج في انبعاث فتوتها الى تجديد اساليب التربية . وللوصول الى هذه الغاية ، يتحتم الابتداء من الاساس . وهكذا نراه في عام ١٨٣٧ يفتح في بلنكنبور معهداً لتربية الصغار ، ويصدر مجلة بعنوان : «تعالوا نعش من اجل اطفالنا » . واسس معهداً آخر سنة ١٨٣٥ في درسد بعد ان القى محاضرة في التربية الصحيحة بحضور ملكة ساكس . وفي العام نفسه اوجد معهداً ثالثاً في فرنكفورت . واخذت الدائرة تنداح ، وتتسع ، وتكسب الفكرة انصاراً في جميع الطبقات . ولقد وضع لهذه المؤسسات اصولها ، وقرر مناهجها ، ورسم توزيع الاوقات والمواد ، وحدد غايتها ، وسلك اقصد المسالك الى الغاية المطلوبة ، ولم تعم عليه مشتبهات جدّتها ،ولكنه تحير في الاسم الذي يطلقه عليها ، الى ان اهتدى الى الاسم الشائع الآن : كندر كارتن او « حديقة الاطفال » .

★

بدأت الحديقة الاولى العمل في ٢٨ حزيران سنة ١٨٤٠ في بلانكنبور ، وتبعتها الثانية في كانون الاول في رود ولستات ثم تعددت في السنوات التالية ، ولا سيما في عام ١٨٤٧ الذي انشيء فيه عشر حدائق في مختلف المدن الالمانية . وتوصل فروبل الى اقناع الرجال الرسميين بصواب نظريته ، وبحاجة الامة الالمانية الى مثل مؤسساته ، للعناية بنفوس الاطفال ، وتكوينها وتفتيقها على الابتداع والابتكار . واسس سنة ١٨٤٩ داراً للمعلمات لتخريج عدد كاف من المدرسات الأكفاء لمثل هذه المهمة التي تختلف كل الاختلاف عن التعليمين الابتدائي والثانوي . وقضى المصلح سنواته الاخيرة في شد ازر انصاره ، وتشجيع المترددين ، واقناع الخصوم ، ومحاربة المشنعين . وما زال ناشطاً ، عاملاً ، محاضراً ، مطوفاً الى ان توفي سنه ١٨٥٢ . غير ان فكرته تأصلت في تربة غنية ، فبسقت ونمت ، وعمّت خيراتها العالم المتمدن اجمع . وما مضى على وفاته نصف قرن حتى كان كثير من اطفال العالم ينعمون بفضله ، وينشأون نشأة طليقة واعية . ففي ذلك الحين نشط عدد كبير من حدائق الاطفال منها: ٢٩٩٧ في الولايات المتحدة الاميركية ، يدرس فيها ٤٥٣٤ معلمة ، و٢٥٤ في اليابان ، ما عدا المدارس التي عمّت انكلترة وهولندة والمانية نفسها . واما الآن فعددها لا يحصى .

★

وبعد فما المبادىء التي قام عليها مذهب فروبل في التربية عامة ، وفي تربية الصغار خاصة ؟

الصغير ، في رأيه ، يحب العمل الصالح اكثر من حبه العمل الشرير . ولا يغرننا ما نراه ظاهراً في تصرفاته من دلائل السوء ،

فليس ما يتبدى لنا من نزواته ومنازعه ، كالقسوة ، والعناد ، والاستبداد ، والاثرة ، إلا ستاراً يخفي تحته طيبة وإيثاراً وطلاقة نفس. ويرسم لهذا الطفل صورة في غاية الاشراق الخلقي، تشع بالخطوط الملونة الزاهية، ولكنه ما يعتم ان يعبس، ويتشاءم عند عرضه شروط الحياة التي يعيشها كل من المرأة والطفل . فهو يقول: « النساء والأولاد مهملون ومضطهدون اكثر من جميع الناس . فالأولاد ضحية جهلنا لأننا نرهق نفوسهم بأنظمتنا القاسية، ونخنق شخصياتهم النابتة بتربية تناقض في معظم الاحيان سنة الطبيعة ». ويقول ايضاً في احد مقاطعه الشعرية : « وأنت يا من تجتاز الحدائق والحقول والسهول والغابات ، لماذا لا تصغي الى صوتها ، والى ما تعلمك الطبيعة بلغتها الصامتة ؟ ان النباتات التي تطلق عليها اسم «العشب المضر» ما نمت إلا متلازّة محصورة، فهي لا تشعر بما قد تصير اليه إذا قُيض لها ان تنمو وتتفتح في فضاء أوسع . إذا زرعت في حقل وتُعهدت بالعناية ، فإنك تراها امام عينيك وقد زينت الطبيعة ببهائها ، وشاعت الحياة في اعضائها . كذلك الطفل الذي نغلّه بقيود تربية فاسدة ، إنه يشحب ويتهافت ، مثقلاً بالعيوب الجسمانية والخلقية، مع ان في وسعه النمو والتفتح في حديقة الحياة » .

هكذا نراه يقرر مبدأه الاول القائل ان لكل طفل فرديته ولهذه الفردية حرمتها وقدسيتها . ومن الخطل الاعتقاد بانه شمع طريء ، او صلصال لدن ، يعجنه المربي كما يشاء ويطبعه بخاتمه . اما المبدأ الثاني فهو ان هذه الفردية عاملة ، ناشطة ، منفذة أكثر منها متلقية ، وما مطلبها إلا الفعل والنمو بحرية مطلقة . ومن هنا تتضح النتائج التعليمية التي تشيع في مصنفات المعلم ، وتحولها الى ثورة على القديم . فالاسلوب المقترح يقضي بتحرير الغلام من لساره ، والتخفيف عن ذهنه في حفظ المسائل المقررة ، وإلغاء الكتب ، ومعاونة الطبيعة في عملها المثمر بحيث يكون اعتماد التلميذ على ذاته ، فيعلم نفسه بنفسه . وما دور المعلم إلا دور الموجه الذي يتيح للغلام الفرص المناسبة لاثارة اهتمامه، وتحريك شهيته للفهم والتمثيل، فالهضم والاستيعاب. وأول ما يعنى به تمرين الحواس ، وتدريب اليدين على التقدير المضبوط ، واللمس المدرك ، والحركات المولدة . ولا يُقبل الصغير على الافادة من قواه الكامنة هذه إلا إذا استثارته رغبة في اللعب ، واستهوته الحركة في شتى فنونها . فاللهو آية فروبل البينة ، ومفتاح كنوزه. ولا يعني باللهو ألعاباً متنافرة، مرتجلة ، طائشة ، وإنما يقصد بها هدفاً معيناً ، محدوداً . فهي تنتظم ، وتتسلسل ، وتتناغم بحيث توفر لكل عضو من الاعضاء ، ولكل جارحة من الجوارح ، حظها من المران والتكامل . ويتألف من مجموعها نشاط مدروس منهجي ، مغلف بالتسلية ، مبطن بالفائدة .

ليس في وسعنا ، وقصدُنا الايجاز ، ولوج باب التفصيل ، وذكر المأثور من منهج فروبل في « حدائقه » . فان هذه الناحية التطبيقية معروضة بكثير من البلاغة والاطناب في المؤلفات التي عنيت بها ، ورسمت للمربين الالمان والهولنديين والاميركيين والفرنسيين والايطاليين واليابانيين والروس منهج العمل . ولكن الامر الذي يسترعي انتباه الباحث ان الاداة الاولى التي خصها فروبل بعنايته ، وألح على استعمالها في الخطوات البدائية ، هي الكرات : كرات من الصوف ، مختلفة الاحجام والالوان ، مطّاطة ، رخوة ، تُدحرج على البلاط ، او تُعلق بخيط لترسم في فضاء القاعة اشكالاً من الحركات ، وخليطاً من الاصابيغ . فهي تجذب انتباه الطفل ، فيلاحقها بنظره في اوضاعها العديدة ، ويميز بين ألوانها فيمرن بذلك نظره . ويتعلم عند قذفها إصابة الهدف ، ويفيد من تبادلها مع رفاقه قوة في عضلاته . وهي بالاضافة الى هذه

دار العلم للملايين

تقدم نخبة من كتب القصص

		قرش
اشواق	: للدكتور سهيل ادريس	٢٠٠
نيران وثلوج	: » » »	١٠٠
كلهن نساء	: » » »	١٠٠
يوم وليلة (خلافة ابن المعتز)	: للاستاذ عبدالعزيز سيد الاهل	١٥٠
يوميات هالة	: للسيدة سلمى لطفي الحفار	٣٠٠
شفتان بخيلتان	: للاستاذ رياض طه	١٠٠
غابة الكافور	: للاستاذ سعيد تقي الدين	١٥٠
ساعة الملازم	: للدكتور عبد السلام عجيلي	٢٥٠
المجرمون في الحب	: للاستاذ سليم اللوزي	١٠٠
مسارح وابطال	: للاستاذ اديب مروة	٢٠٠
الجوع لا يرحم	: للاستاذ محمد حاج حسين	١٥٠

لهذي الجموع

أحسناء رفَّ الحبابُ السخينُ
على مقلتيكِ
وسال فحار السؤال الحزين
على وجنتيك
بكى الورد في وجهك النيِّرِ
طغى الوجد في نبرك الساحر
وقلتِ :
تغيرت يا شاعري
فأين اصطخاب الجوى الثائرِ
وحرُّ النشيدِ
ودنيا الغزل
واين انتحار الزمان المديدِ
بشهد القبل
وثغري يذوب على شفتيكَ
وانت تجج إلى شفتيَّ
وحيناً أنام على ساعديكَ
وحينا تنام على ساعديَّ
وصدري يضم عليك الجنانَ
ونهدي يدر بفيك الحنان
وانت على ساعدي الرضيع
ولحنٌ .. ودنٌّ
وليلٌ .. يجنُّ
وتحنو النجوم على عرشنا
وتنسج من نورها عُشنا
تلألأ تشدو تغني لنا
انا انت في الحب انت انا !
فيا شاعري غيرتك السنون
وغاض المعينُ
وجفَّ الوتر
ترى غيَّرتني ؟
تراني فقدت العيون التي
ألهمتك النشيد
وهل قصف الدهر هدب الجفون
وكم ألهبتكَ
تقول القصيد
وهل ثغري القرمزي الشهي
– كما كنت تشدو –
غدا كالجليد
أيا كبوة الأمل العاثر
جمدتَ .. تغيرت يا شاعرى .. »

★

احسناء ما غيرتني السنونُ
ولا غيرتكِ
احبك ما زلت .. لكنني
صحوت على صرخات الجموعِ
وخطو الفناء الى امتي
وانتحاب القبور
رأيت الحياة تموت هناك

الخصائص العديدة كروية لا تؤذي الطفل عند تسلمها، وكبيرة بحيث لا يضعها في فمه ، ورخوة فلا تؤلمه إذا صدمته . وهكذا تتدرج لهواته ، راميا من وراء كل واحدة منها الى غايتين : بدنية وعقلية . وهو يفرض ان تكون هذه الالعاب مرافقة بالغناء ، بأناشيد بسيطة ، مفرحة ، قريبة المعاني ، سهلة المخارج . وعمد هو نفسه في عام ١٨٤٤ الى وضع ما يقارب مئة انشودة تتوافر فيها الميزات المطلوبة .

ينتقل الطفل من بعد الى استخدام ادوات متعددة ، لكل منها خصائصها وأماليها ، متعرفاً الى الاجسام والاحجام والخطوط والصلابة والرخاوة ، عامداً الى الابتكار في البناء ، واحتذاء التصاميم الموضوعة بين يديه بحيث ينشط خياله ، ويستيقظ ابتداعه . ولستَ واجداً في « محارف العمل » منبراً وكرسياً ومعلمة مسمّرة في مجلسها ، تتكلم ، وتسرف في الخطاب ، وانما أنت واجد هنا « بستانية » تطوف بين الاطفال ، آخذة بيد هذا ، منبهة ذاك ، مسددة عمل ذلك ، شاملة الجميع بنظرة عامة ، مدركة نواحي الضعف والقوة في كل عمل من قطيعها .

★

في السطور التي خطها فروبل ، وفي النصائح التي وجه بها أتباعه ، جعل من الطفل والزهرة رفيقين متعانقين . ولم يعن بقوله « حدائق الاطفال » ضم حديقة الى كل مدرسة يتعلم فيها الاحداث ، وانما قصد الى معنى أسمى وأنبل . ففي خياله ويقينه ان الاطفال كالازهار الطرية الندية يحتاجون الى عناية مستمرة ، وعين يقظى ، وحرارة قلب ، لتتفتق أكمامهم في أروع ألوانها وأعبق عطورها .

جبور عبد النور